الفصل الخامس

الضربة المصرية الأولى

المدمرة «إيلات»

- أمريكا تحاول ضرب الجيش المصرى من المنبع بعد أن ضربته إسرائيل من المصب
- عبد الناصر يعترف:

وضعت مسدسى إلى جانبى.. وأرسلت عائلتى إلى خارج القاهرة فلم يعد يمنع إسرائيل من دخول القاهرة سوى سبع دبابات.

- فى أول ضربة بحرية مصرية غرقت المدمرة «ايلات» وسقط ٢٥٠ قتيلا إسرائيليا.
- حوار أميركى- سوفيتى ساخن على العشاء فى نيويورك.

obeikandl.com

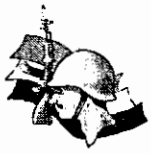

حتـى تجعل مصر لموقفهـا مصداقية حقيقية أصبح عليها أن تخوض سـباقا مع الزمن لإعادة بناء قواتها المسـلحة، خصوصا وأنها فى هذه المرة تبدأ من تحت الصفر. وفى ظل تفوق عسكرى اسرائيلى ضاعفت منه نتائج الحرب. بالإضافة إلى انعكاسات صدمة الهزيمة القاسية على الرأى العام المصرى فى الداخل.

وطبقا لمحاضر اجتماعات مجلس الوزراء، فإن عبد الناصر شـرح الموقف بقوله: «.. لا يمكن أن أنسى الأيام الأولى التى مرت علىَّ بعد يونيو، كنت أشعر بمرارة كبيرة، مرارة لا يمكن وصفها. فلا شـك أن ما حدث فى يونيو قد أثر علينا جميعا نفسـيا ومعنويا وماديا. لقـد كان علىَّ أن أقابل العديد من الرؤسـاء والزائرين والصحفيين، بل والشـامتين أيضا، مرت بنا ظروف صعبة، وواجهنا مؤامرات ضدنا. وكنت مسئولا عن مراجعة كل ما يحدث فـى الجبهة الداخلية. ومـا يتم من اتصالات خارجية، لقد تمنيت فى تلك الأيام لو أننى تنحيت بالفعل عن السلطة وابتعدت عن موقع المسئولية، كان تقديرى دائما أن الأيام التى سـنواجهها صعبة فى الداخل والخارج، لأن خصمنا قوى ولديه التنظيمات وجاهز للعمل ضدنـا ولديـه كل ما يحتاجه من أموال للقضاء علينا، أنـا فى يوم ١١ يونيو عندما عدلت عن قرار التنحى كنت فى حالة سـيئة جدا إلى درجة أننى أرسلت عائلتى خارج القاهرة، ووضعت مسدسـى إلى جانبى لاسـتخدامه فى أخر لحظة، يومها سألت عن عدد الدبابات المتبقية فى القاهرة، فقالوا لى لم يبق إلا سبع دبابات، وبالرغم من ذلك بدأت مع القيادات العسـكرية السـير فى الطريق الصعب، طريق إعادة بناء قواتنا المسـلحة من جديد، كنت أتحدث مع الفريق فوزى «وزير الحربية» كل ليلة قبل أن أذهب للنوم، ثم أطلبه فى الساعة السادسـة صباحا لأراجع معه موقف القوات وموقف القيادات واسم القائد المسئول فى كل موقع، ولو لم الجأ إلى هذا الأسلوب لكانت الأمور قد فلتت...».

حالة غليان

وعلى مسـتوى الفرد العادى، فإننا كنا نذهب إلى شـاطئ القناة فى تلك الأيام فنجد العلم الاسرائيلى مرفرفا على الضفة الشرقية المقابلة، بينما الجنود الإسرائيليون يستخدمون مكبرات الصوت لكى تصل منها سـخريتهم البذيئة إلى الجنود المصريين بجوارنا، وعلى رغم الأوامر

القاطعة لهؤلاء الجنود المصريين إلا أنهم، بأوامر ومن غير أوامر، كانوا يطلقون النار فورا على أى جندى اسرائيلى يحاول الاستحمام فى مياه القناة، أو يرفع العلم الاسرائيلى فوق الساتر الرملى إلى أن اضطر الإسرائيليون فى النهاية إلى أن يلزموا جحورهم يحتمون بها.

وكان العسكريون المصريون فى حالة من الغليان، ليس فقط لأن العدو أمام أعينهم يتبجح بطلب الاستسلام، ولكن أيضا لأن مشاعر الغضب لدى الرأى العام اتخذت أحيانا مسالك متعرجة لتفريغ مرارتها، فالشعب المصرى لم يتخل أبدا عن روحه الساخرة حتى فى اللحظات حالكة السواد، وبدأت تتولد وتنتشر نكات تسخر من الأداء العسكرى فى حرب يونيو، ومن العسكريين الذين حملهم الشعب مسئولية الهزيمة المروعة، إلى درجة أن الضابط أو الجندى الذى كان يعود من الجبهة فى إجازة قصيرة، كان يسمع بعض تلك النكات من زوجته أو شقيقه، واضطر جمال عبد الناصر فى خطاب علنى إلى أن يناشد أفراد الشعب الكف عن السخرية من العسكريين لأنهم هم أنفسهم الذين يرتبط بهم الأمل فى تحرير الأرض المحتلة، ولكن تلك النكات الساخرة القاسية لم يقدر لها أن تتوقف أبدا إلا مع بروز أداء عسكرى جديد بدأ الشعب المصرى يلمسه فعليا من خلال الوقائع المحددة.

مواجهة جوية

ففى أول يوليو ١٩٦٧ حاولت القوات الإسرائيلية برا وجوا الاستيلاء على «رأس العش» وهى الجزء الوحيد الباقى من ارض سيناء تحت السيطرة المصرية ويقع جنوب مدينة بور فؤاد، ولم يكن فى هذا الموقع سوى وحدات صغيرة من القوات الفدائية الخاصة «الصاعقة» والمشاة وبعض قطع المدفعية المضادة للطائرات جىء بها على وجه السرعة عند وقف إطلاق النار قبل ٢١ يوما. وعلى رغم تكرار الهجوم الاسرائيلى ثلاث مرات على تلك النقطة المصرية الصغيرة فى الضفة الشرقية للقناة إلا إنه فشل فشلا ذريعا. ودمر له ثلاث دبابات وقتل بعض أفراده.

بعدها بأسبوعين، وبينما طائرات الاستطلاع الإسرائيلية فى مهمتها اليومية لاستكشاف التحصينات المصرية الجديدة غرب القناة. فوجئ الطيران الاسرائيلى فى ١٤ يوليو بعشر طائرات مصرية من طراز «ميج ١٧» تتصدى له فجأة، بينما تحلق عشر طائرات مصرية أخرى استعدادا للانضمام إلى المعركة، وانسحبت الطائرات الإسرائيلية بعد إصابة إحداها. وفى اليوم التالى تكررت نفس المواجهة فوق نفس المنطقة من قناة السويس، وتكررت نفس

النتيجة، فيما أصبح أول مواجهة جوية محددة بين مصر وإسرائيل تقع بعد ٢٥ يوما من وقف إطلاق النار، وكانت الدلالة الفورية لتلك المعارك المحددة والمبكرة هى التعبير أساسا عن إصرار القوات المسلحة المصرية، وهى ما تزال فى بداية مرحلة إعادة البناء، على رفض الأمر الواقع وعدم قبول النتائج العسكرية لحرب يونيو.

قرار سياسى بتدمير المدمرة «ايلات»

وفى ٢١ أكتوبر وقع اشتباك آخر أكثر عمقا فى مغزاه وأبعد تأثيرا، ففى ذلك اليوم اقتربت المدمرة الإسرائيلية «ايلات»- فيما أصبح روتينها المعتاد- من المياه الإقليمية المصرية شمال بور سعيد، كمظهر متكرر من الغطرسة الإسرائيلية الجديدة التى توضح للمصريين عجزهم أمام الأمر الواقع الجديد بعد حرب يونيو.

وكان لابد من دراسة مسبقة للفعل ورد الفعل، فضرب «ايلات» سيصيب إسرائيل بخسارة عسكرية ضخمة، فضلا عن الخسائر البشرية المتوقعة فى طاقم المدمرة، والاحتمال الأقرب لرد الفعل الاسرائيلى هو ضرب معامل تكرير البترول المصرى فى السويس بالمدفعية طويلة المدى من سيناء، دون الحاجة إلى استخدام الطيران، وأصبح هذا «قرارا سياسيا لابد من عرضه على الرئيس عبد الناصر، وتم العرض، ووافق الرئيس مع تعديل واحد هو الاكتفاء بضرب المدمرة دون التعرض» بعد ذلك «لأى وحدة من وحدات الإنقاذ، كما أنذرت وزارة الداخلية لتعزيز وحدات المطافئ بمنطقة السويس، وكانت مكونة من وحدات مطافئ وزارة الداخلية ووحدات مطافئ القوات المسلحة، بوحدات تتحرك من القاهرة خلال الليل، إذ كان التوقع أن يكون رد الفعل فى اليوم التالى».

وهكذا قام اثنان من زوارق الصواريخ المصرية بإغراق المدمرة «ايلات» بصاروخين من طراز «كومر» فيما اعتبر من وقتها انقلابا فى تاريخ الحرب البحرية.

لقد غرقت المدمرة «ايلات» على الفور- وهى أكبر قطع الأسطول البحرى الاسرائيلى- ومعها مائتان وخمسون من أفراد طاقمها.

عملية فدائية غير معلنة

وكما توقعت القيادة المصرية مسبقا، جاء الانتقام الاسرائيلى فى اليوم التالى بقصف مستودعات الوقود ومعامل تكرير البترول فى مدينة السويس جنوبا كهدف اقتصادى ثمين

فى متناول المدفعية الإسـرائيلية من سيناء، بعد أن أصبحت القيادة الإسرائيلية بحالة من الهستيريا جعلتها توجه انتقامها إلى أهداف مدنية.

وعلى المستوى العسكرى بدأت مصر «فى نفس اليوم التفكير فى ضربة مضادة، كانت الرؤوس الساخنة تبغى الانتقام، وكان القرار هو ضرورة إشعال النار فى ميناء ايلات وذلك بضربها بالطائرات، وايلات بها فناطيس البترول وبها السفن، وهى غرض ثمين ذو أهمية إستراتيجية كبرى للعدو، فالضربة سوف تكون موجعة.

ولكن الطيران المصرى لم يكن قد استعاد قوته الكاملة بعد، لذلك استقر الرأى على التخطيط لضرب ايلات بواسطة عملية سرية وفدائية تقوم بها القوات الخاصة المصرية دون إعلان، وخلال أسابيع قليلة نزل رجال الضفادع البشرية «إلى مكان ما بالقرب من ميناء العقبة الاردنى.. ونزلوا إلى الماء يسبحون إلى الغرض، وبعد ساعات ارتفعت أصوات المتفجرات فى الميناء واشتعلت النيران عالية فى السماء واحترقت خزانات البترول» وغرق عدد من السفن دون أن تعلن مصر مسئوليتها عن هذا الحادث.

أما على المستوى السياسى، فقد كان رد الفعل المصرى هو عملية كبرى لإخلاء مدن القناة كلها- بورسعيد والإسماعيلية والسويس- من السكان المدنيين. وتجاوبت أربعمائة ألف من السكان على الفور بالانتقال إلى أماكن إيواء عاجلة تم إعدادها بسرعة داخل المحافظات الأكثر بعدا من جبهة قناة السويس، وقد تحمل هؤلاء المهجرون من حياتهم الشخصية الكثير لأنهم فهموا على الفور مغزى التهجير الشامل هذا، وهو ألا يصبحوا رهينة لقذائف المدفعية الإسرائيلية من سيناء طوال قيام الجيش المصرى بعملية إعادة البناء العسكرى.

وأصبحت تلك قرينة أخرى على أن المصريين لن يستسلموا أبدا للأمر الواقع الذى خلقته حرب يونيو، وأنهم مستعدون لتحمل التضحيات فى سبيل ذلك.

وبعد إغراق ايلات بأربعة أيام فقط أعلنت الولايات المتحدة عزمها على تسليم ٤٨ طائرة جديدة من طراز سكاى هوك A4 بحجة أنها ضمن صفقة سبق الاتفاق عليها منذ فبراير ١٩٦٦، (وبالتدريج سيزيد عدد تلك الطائرات إلى مائة).

صراع الإرادات

كان الصراع إذن هو بالدرجة الأولى صراع إرادات. فهناك إرادة أمريكية يعبر عنها ليندون جونسون لإرغام مصر على قبول الأمر الواقع الجديد بعد الحرب، وهناك إرادة

مصرية يعبر عنها جمال عبد الناصر برفض هذا الأمر الواقع من أساسه والتعبير عمليا عن تجاوب الشعب مع أى تضحيات إلى أن تستكمل القوات المسلحة المصرية إعادة بنائها.

ولقد جاء إغراق مصر للمدمرة الإسرائيلية إشارة عملية مبكرة سرعان ما فهم الأمريكيون مغزاها على الفور، ففى نيويورك حيث مقر الأمم المتحدة، وحيث كان يدور الجانب الدبلوماسى من الصراع منذ قرار وقف إطلاق النار غير المشروط؛ قام آرثر جولد بيرغ ممثل الولايات المتحدة فى الأمم المتحدة بدعوة كوزنتشوف نائب وزير الخارجية السوفياتى إلى العشاء، لقد أبقت دول عديدة على وزراء خارجيتها أو نوابهم فى نيويورك للمشاركة فى المفاوضات الجارية، إلى جانب الممثلين الدائمين لها فى الأمم المتحدة، وكان كوزنتشوف من هؤلاء الباقين، حيث أصبح على اتصال مستمر يوميا مع وزير خارجيته فى موسكو.

ذهب كوزنتسوف إذن إلى مائدة العشاء التى أعدها جولد بيرغ، حيث وجد فى صحبته والف بانش مساعد السكرتير العام للأمم المتحدة، وبعض أعضاء الوفد الأمريكى، وكما هى العادة فإن الدبلوماسيين فى الأمم المتحدة يمارسون ثلاثة أرباع عملهم الحقيقى- من تبادل للأفكار والمعلومات واستكشاف للنوايا وتدبير الحيل وبلورة المواقف- على موائد غذاء أو عشاء مثل هذا، ولم يكن كوزنتسوف ليتوقع غير ذلك فى هذه المرة.

حوار على العشاء

لكن الذى حدث لم يتوقعه المسئول السوفياتى هو أن يبدأ جولد بيرغ «حوار العشاء» هذا بحديث غاضب عن إغراق مصر للمدمرة ايلات (الذى كان قد وقع قبلها بأربعة أيام).

قال جولد بيرغ: العرب يملأون العالم صراخا بأن إسرائيل هى السبب فيما يجرى فى الشرق الأوسط.. وها هو ذا مستر ناصر الذى يفعلها فى هذه المرة! هل توافقون على مبادرته بإغراق المدمرة ايلات؟

ورد كوزنتسوف متسائلا بدوره: وما الذى جعلها تخترق المياه الإقليمية المصرية؟

أخرج جولد بيرغ من جيبه ورقة أمريكية رسمية عليها «سرى جدا» وطرحها أمام كوزنتسوف على مائدة العشاء قائلا: دعنى أطلعك على وثيقة سرية لم يطلع عليها فى الإدارة «الأمريكية» سوى الرئيس جونسون وروبرت ماكنمار «وزير الدفاع».. هذه برقية من الملحق العسكرى الأمريكى فى تل أبيب، يسجل فيها أن المدمرة الإسرائيلية كانت على مسافة تتراوح من ١٢ و١٥ ميلا من الساحل المصرى..

قال كوزنتسوف: أنت تطلعنى على ورقة من ملحق أمريكى إلى مسئول أمريكى، لكن دعنى أذكرك أن ما هو مسجل فى وثائق الأمم المتحدة رسميا هو أن المدمرة الإسرائيلية كانت على مسافة ١١ ميلا فقط من الساحل المصرى.. أليس كذلك يا مستر باتش؟!

ولكن يبدو أن مستر رالف باتش لم يشأ أن يكذب آرثر جولد بيرغ وهو جالس ضيفا على مائدة عشائه، لذلك استأنف كوزنتسوف حديثة متسائلا: إن المدمرة ايلات هى على أى حال قطعة حربية إسرائيلية.. فهل أنت توافق على أن يكون الرد الاسرائيلى هو قصف السكان المدنيين فى السويس؟ ولم يحر جولد بيرغ جوابا فقد أصبحت شهرته فى مقر الأمم المتحدة هى أنه يعمل محاميا باسم إسرائيل ستة أيام فى الأسبوع، ثم يتذكر أنه يحمل الجنسية الأمريكية فى اليوم السابع، والقضية بالنسبة له هى أن إسرائيل موجودة فى سيناء وعلى شاطئ قناة السويس كإجراء دفاعى يتم «بحكم الطبيعة»، فإذا عبرت مصر عن رفضها وتصرفت على أنه احتلال اسرائيلى.. فإن هذا يصبح «مبادرة مصرية بالعدوان».

الحد من التسلح

لقد تحول الحديث بعد ذلك على مائدة العشاء إلى المشاورات الجارية فى كواليس مجلس الأمن، لكن السؤال الطبيعى هنا هو: لماذا يثير جولد بيرغ موضوع إغراق المدمرة ايلات مع المسئول السوفيتى.. بدل أن يثيره مثلا مع محمود رياض وزير خارجية مصر الموجد حينئذ فى نيويورك منذ أربعين يوما. والذى قابله جولد بيرغ أكثر من مرة فى الجناح «٢٢- أف» بفندق الوالدورف استوريا فى نيويورك!

كان التفسير بسيطا وعمليا، فمنذ حرب يونيو قبل خمسة شهور، وفى كل مرة اجتمع فيها مسئول سوفيتى مع آخر أميركى. ابتداء من كوسيجين مع جونسون. وغروميكو مع دين راسيك وجولد بيرغ. ودوبرينين فى واشنطن مع والت روستو. أو الآن جولد بيرغ مع كوزنتسوف. كان الأمريكيون يكررون فى كل مرة طلبا ملحقا يعطونه الأهمية القصوى، وهو: ضرورة الاتفاق على الحد من التسلح فى الشرق الأوسط. وتلك الكلمات ظاهرة البراءة سرعان ما كانت تتحول فى كل مناقشة إلى طلب أميركى محدد بأن يتوقف السوفيات عن تسليح مصر. أو بالدقة: إعادة تسليح مصر.

وقد جعل الرئيس جونسون «الحد من التسلح» واحدا من مبادئه الخمسة للتسوية فى الشرق الأوسط، ولكن وقف تسليح مصر. أو الحد منه. بينما إسرائيل تحتل سيناء

والجولان والضفة الغربية يعنى فى الواقع تجريد مصر مسبقا من أى خيار عسكرى لتحرير الأرض.. وهذا يعنى بدوره ألا يبقى أمام مصر من سبيل لتحرير أرضها سوى التسكع فى دهاليز وزارة الخارجية الأمريكية.. لعل أحدا يقدم إليها فاتورة طلبات معقولة توقع عليها حتى تخرج إسرائيل متطوعة ومختارة من سيناء، وسيناء فقط.

فى نفس الوقت لم يكن أى مسئول أمريكى يثير هذه القضية مع مسئول مصرى.. إنهم يفعلون ذلك فقط مع السوفييت، لأنهم يريدون استكمال ضرب الجيش المصرى من «المنبع» بعد أن ضربته إسرائيل من قبل فى «المصب».

□□□

obeikandl.com